

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مخارضة السنة والبدعة

الدكتور محمد خير الشعال

٢٠٠٣/٦/١٠ م

البدعة: لغةً: إحداث شيءٍ لانظير له سابقاً، قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خلقهن دون سابق نظير لها.

اصطلاحاً: إحداث قولٍ أو فعلٍ أو اعتقاد، لم يرد به إذن من الشارع في كتابٍ أو سنةٍ أو إجماعٍ أو قياس، ولم يدخل تحت القواعد والمبادئ العامة للإسلام أو إحداث ما يعارض ذلك ويخالفه. وعلى هذا؛ فإن أي حدث يحدث يُنظر فيه: فإن دلَّ عليه دليل من كتابٍ أو سنةٍ أو إجماعٍ أو قياسٍ فهو مشروع، وإن لم يدلَّ عليه دليلٌ نُظِرَ هل يدخل تحت قاعدة من قواعد الإسلام وعموميته أولاً، فإن دخل تحتها فهو مشروع أيضاً وليس بدعة، وإن لم يدخل فهو بدعة وضلالة. وبهذا يمكننا التوفيق بين النصوص المحذرة من الإحداث والناهية عنه.

قال ﷺ: «... إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» مسلم، وعند النسائي بزيادة: «وكل ضلالة في النار».

قال ﷺ: «من سن سنة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنةً سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» مسلم.

قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» الشيخان، ومفهوم الحديث: من أحدث في أمرنا هذا ما هو منه فهو مشروع.

ومن هنا قسم العلماء البدعة إلى أقسام خمسة بدعة واجبة، ومندوبة، ومباحة، ومكروهة، ومحرمة. وهؤلاء العلماء منهم العز بن عبد السلام في قواعده والشاطبي في الاعتصام، وابن حجر في الفتح، والنووي في شرح مسلم، وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم. وقالوا: البدعة الواجبة كجمع القرآن وحفظ علوم الدين.

والبدعة المندوبة كإحداث الربط والمدارس وجماعة التراويح «نعمت البدعة هذه».

والبدعة المباحة كالمصافحة عقب الصلوات والتوسع في المآكل والمشرب.

والبدعة المكروهة كزخرفة المساجد وزيادة مرة رابعة في أفعال الوضوء.

والبدعة المحرمة كزيادة ركعة في صلاة مفروضة أو تبديل الحدود بغرامات مالية أو الزواج المدني، أو بيع الخمر والخنزير أو نكاح المحارم.

من كلِّ هذا نعلم أنه ليس كلُّ ما يطلق عليه بدعة هو ضلالة، لأن قسماً من البدع تدخل تحت قواعد شرعية معتدِّ بها فليس فعلها ضلالة، وإطلاق البدعة عليها يراد به البدعة لغة لا شرعاً.

أما القسم الخامس أعني البدعة المحرمة فهو المراد من البدعة الاصطلاحية.

بقي سؤال حول عموم لفظ النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة» فالحديث فيه لفظ (كل) وهو من ألفاظ العموم.

والجواب: ١- إن قوله (بدعة) له حقيقة شرعية وحقيقة لغوية، وإذا أطلق اللفظ في النصوص الشرعية فيحمل على معناه الشرعي أولاً، فمراد الحديث (كل بدعة شرعية اصطلاحية ضلالة).
٢- أو نقول: إن هذا من العام المخصوص، أي هذا لفظ عام وقد خصص في أحاديث وأدلة أخرى كقوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة» وقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» ونحوهما.

ثم هناك ملاحظة أخيرة وقاعدة أصولية مهمة تقول: (عدم الفعل ليس دليلاً)، فنحن نعلم بأن السنة عند الأصوليين هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، فأفعال النبي ﷺ تدل على الوجوب أو السنية أو الإباحة، فهل عدم فعله ﷺ لشيء يفيد أن هذا الشيء مكروه أو حرام، بحيث إذا فعلنا شيئاً ما؛ قال لنا رجلٌ هذا أمر لم يفعله رسول الله ﷺ فهو إذن حرام؟

الجواب: لا، إن عدم فعله ﷺ لشيء ليس دليلاً على حرمة، بل الأمر متروك على الإباحة الأصلية، حتى ينزله الفقهاء العلماء على حكم تكليفي ما.

ونتيجة هذه المحاضرة أن نعلم:

أن التوسل بالنبي ﷺ أو بأحدٍ من الصالحين الأحياء أو الأموات أو التبرك بهم وبآثارهم، أو طلب الغوث والمدد أو شد الرحال إلى قبر النبي ﷺ أو الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان جهراً أو الأذكار الجهرية بعد الصلوات أو استعمال المسبحة في الذكر أو الدعاء الجماعي.. ونحوها من الأمور التي يسميها بعض الناس بدعة وهي ضلالة وهي في النار، بحجة أنها مستحدثة وأن النبي ﷺ لم يفعل هذه الأمور، نعلم أن هذه الأمور تدخل في البدعة اللغوية لكنها ليست بدعة شرعية اصطلاحية، فهي ليست ضلالة وليست في النار، ولكن تتناوبها الأحكام الفقهية الأربعة الأخرى بين كونها واجبة أو مندوبة أو مباحة أو مكروهة. والله أعلم.

وهذه نماذج عملية من شيخين كبيرين حافظين من تلامذة مدرسة الشيخ ابن تيمية:

١- جاء في كتاب سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ج ٤/ص ٤٢ ترجمة الإمام (عبدة بن عمرو):

قال محمد بن سيرين: قلتُ لعبيدة: إن عندنا من شعر رسول الله ﷺ شيئاً من قبَل أنس بن مالك، فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحبُّ إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض.

قلتُ: هذا القول من عبدة هو ميعار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهبٍ وفضةٍ بأيدي الناس، ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شسَع نعلٍ كان له أو قلامة ظفرٍ، أو شقفة من إناء

شَرِبَ فِيهِ، فَلَوْ بَدَلَ الْغَنِيِّ مُعْظَمَ أَمْوَالِهِ فِي تَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَهُ، أَكُنْتَ تَعُدُّهُ مَبْتَدِئاً أَوْ سَفِيهاً؟ كَلَّا، فَابْذُلْ مَالَكَ فِي زُورَةٍ مَسْجِدِهِ الَّذِي بَنَى فِيهِ بِيَدِهِ وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ حُجْرَتِهِ فِي بَلَدِهِ، وَالتَّذُّ بِالنَّظَرِ إِلَى (أَحَدِهِ) وَأَحِبَّهُ، فَقَدْ كَانَ نَبِيكَ ﷺ يُحِبُّهُ، وَتَمَلُّاً بِالْحُلُولِ فِي رَوْضَتِهِ وَمَقْعَدِهِ، فَلَنْ تَكُونَ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُونَ هَذَا السَّيِّدُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ وَوَلَدِكَ وَأَمْوَالِكَ وَالنَّاسِ كُلِّهِمْ وَقَبْلَ حَجَرٍ مُكْرَماً نَزَلَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَضَعُ فَمَكَ لِأَثْمًا مَكَاناً قَبْلَهُ سَيِّدُ الْبَشَرِ بَيِّقِينَ، فَهَنَّاكَ اللَّهُ بِمَا أَعْطَاكَ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مَفْخَرٌ، وَلَوْ ظَفَرْنَا بِالْمُحَجِّجِ الَّذِي أَشَارَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْحَجَرِ ثُمَّ قَبِلَ مُحَجِّجَهُ، لَحُقَّ لَنَا أَنْ نَزْدَحِمَ عَلَى ذَلِكَ الْمُحَجِّجِ بِالتَّقْبِيلِ، وَالتَّبَجِيلِ، وَنَحْنُ نَدْرِي بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَقْبِيلَ الْحَجَرِ أَرْفَعُ وَأَفْضَلُ مِنْ تَقْبِيلِ مُحَجِّجِهِ وَنَعْلِهِ.

وقد كان (ثابت البناني) إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبلها ويقول: يدُ مسَّت يد رسول الله ﷺ فنقول نحن إذ فاتنا ذلك: حجرٌ معظمٌ بمنزلة يمين الله في الأرض مسَّته شفقتنا نبينا ﷺ لا ثمناً له، فإذا فاتك الحجُّ وتلقيت الوفد فالتزم الحاجَّ وقبل فمه، وقل: فمَّ مسَّ بالتقبيل حجراً قبله خليلي ﷺ.

٢- وفي الكتاب نفسه ج ٤/ص ٤٨٣، ترجمة (الحسن بن علي ﷺ):

عن حسن بن حسن بن علي أن رأى رجلاً وقف على البيت الذي فيه قبر النبي ﷺ يدعو له ويصلي عليه، فقال للرجل: لا تفعل فإن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا بيتي عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيث ما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني».

هذا مرسل، وما استدلل حسنٌ في فتواه بطائل من الدلالة، فمن وقف عند الحجرة المقدسة ذليلاً مسلماً، مصلياً على نبيه، فيا طوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأجمل في التذلل والحب وقد أتى بعبادة زائدة على من صلى عليه في أرضه أو في صلاته، إذ الزائر له أجر الزيارة وأجر الصلاة عليه، والمصلي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط، فمن صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشراً، ولكن من زاره -صلوات الله عليه- وأساء أدب الزيارة أو سجد للقبر أو فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسناً وسيئاً فيعلم برفق، والله غفور رحيم.

فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم، والضياع وتقبيل الجدران، وكثرة البكاء، إلا وهو محبٌ لله ولرسوله، فحبه المعيار والفرق بين أهل الجنة وأهل النار، فزيارة قبره من أفضل القرب، وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، لكن سلمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» فشد الرحال إلى نبينا ﷺ مستلزم لشد الرحل إلى مسجده، وذلك مشروع بلا نزاع، إذ لا وصول إلى حُجْرَتِهِ إِلَى بَعْدِ الدُخُولِ إِلَى مَسْجِدِهِ فليبدأ بتحية المسجد، ثم بتحية صاحب المسجد، رزقنا الله وإياكم ذلك آمين.

٣- جاء في كتاب (البداية والنهاية) للحافظ المفسر المؤرخ (ابن كثير الدمشقي ج ٩/ص

٤٤٨) في ذكر حوادث سنة ٧٤٢:

... وأمر القاضي (تقي الدين السبكي) الخطيب المؤذنين بزيادة أذكار علي الذي كان سنّه
فيهم الخطيب بدر الدين من التسييح والتحميد والتهليل الكثير ثلاثة وثلاثين فزادهم السبكي قبل
ذلك: (أستغفر الله العظيم) ثلاثاً، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ثم
أثبت ما في صحيح مسلم بعد صلاتي الصبح والمغرب: اللهم أجرنا من النار سبعاً، أعوذ بكلمات الله
التامات من شر ما خلق ثلاثاً، وكانوا قبل تلك السنوات قد زادوا بعد التأذين الآية ليلة الجمعة
والتسليم على رسول الله ﷺ يتدئ الرئيس منفرداً ثم يعيد عليه الجماعة بطريقة حسنة، وصار ذلك
سبباً لاجتماع الناس في صحن الجامع لاستماع ذلك..

والحمد لله رب العالمين

ورحمتي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

يتوفر لدى دار أفنان محاضرتي د. محمد خير الشعال
فن المطالعة & صور من صبر العلماء

قال الشيخ حسن بن أحمد الحضرمي الواسطي:

إذا ما شئتَ في الدارين تسعدُ
 وإن صليتَ فابغ الأجر فيها
 وإن شئتَ القبول لها يقيناً
 فلا صومٌ يصحُّ ولا صلاةٌ
 وفعلكُ كلُّه عقباه خيرٌ
 وقم في الليل وادعُ الله وارغبُ
 وقُل يا ربَّ لا تقطع رجائي
 فعجل بالمتاب على عبدي
 يخافُ ذنوبه لكن ويرجو
 وكُن لي عند خاتمتي فيني
 فما تتضاعفُ الحسناتُ إلا
 وإن أبصرتَ قوماً ليس فيهم
 فأعرض عنهم واطلب سواهم
 وخف مولاك في سرٍّ وجهرٍ
 وإن كانت ذنوبك ليس تُحصي
 وإن جاء الممات ترى أموراً
 وعند القبر تظفرُ بالأمانِي
 ولا تخشى من الملكين رعباً
 رسول الله حقاً أتبعنا
 وفي لحد القبول لك اتساعُ
 وفي يوم القيامة سوف تُجزى
 وفي يوم الحساب إذا بعثنا
 وتأتي الحوض تشربُ منه كأساً
 ونحطو في الصراط كلمح برقٍ
 وتدخلُ جنةً لاموتٍ فيها
 فهذا كلُّه من فضل ربٍ
 وتنعمُ بالنعيم وحوار عينٍ
 وتنظر وجهَ ربك ذي الجلال
 فتحمده وتشكره كثيراً
 رسولٌ أبطحي هاشميُّ
 سلامٌ طيبٌ أرجُ بهيَجُ
 أيا هادي الأنام ويا شفيعي
 عسى منك القبول لحضرمي

فبادر بالصلاة على محمد
 وشفع بالصلاة على محمد
 فتختم بالصلاة على محمد
 لمن ترك الصلاة على محمد
 إذا صليتَ فيه على محمد
 لربك بالصلاة على محمد
 وكن لي بالصلاة على محمد
 توسل بالصلاة على محمد
 أماناً بالصلاة على محمد
 سألتك بالصلاة على محمد
 بتكرير الصلاة على محمد
 منيب للصلاة على محمد
 وذكر بالصلاة على محمد
 وصل على الشفيع لنا محمد
 تكفر بالصلاة على محمد
 تسرك بالصلاة على محمد
 وترحم بالصلاة على محمد
 إذا سألاك قل لهما محمد
 وآمنا وصدقنا محمد
 وتلهم بالصلاة على محمد
 بما قدمت من ذكرى محمد
 تؤمن بالصلاة على محمد
 فتروى بالصلاة على محمد
 بحفظك للصلاة على محمد
 بما أسلفت من ذكرى محمد
 هदानا للصلاة على محمد
 بدار جازنا فيها محمد
 بذكرك للصلاة على محمد
 على فضل الصلاة على محمد
 شفيع المذنبين غدا محمد
 على المختار سيدنا محمد
 ويا خير النيرة يا محمد
 يخصك بالتحية يا محمد

عن كتاب السفينة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني